# حضور نيتشه في مدرسة فرنكفورت. دراسة مقارنة

م.د.عبد الله عبد الهادي المرهج
جامعة واسط. كلية الآداب

ليس باليسير ايجاد علاقة تجمع بين فلاسفة فرنكفورت ونيتشه، لما عرف عنهم انتمائهم الى الماركسية وتبنيهم لأفكارها ودفاعهم عنها، إذ يلتقون مع الفكر الماركسي في نقدهم للنظام الرأسمالي، وتبنيهم للفكر الإنساني الاشتراكي، وهذا يمثل مفترق طرق بينهم وبين ز يتش . فهم إضافة الى تأثرهم بالماركسية قد تأثروا أيضا بهيدغر ولوكاتش ... وغيرهم، ولم يشاع عنهم تأثرهم بنيتشه، وهذا ما نريد نفيه واثبات العكس، وذلك من خلال عدة شواهد وأدلة تثبت رأينا وأهمها كتابات هؤلاء الفلاسفة بجيليهما الأول والثاني تجد فيها فصول ومباحث كا ملة تتناول فلسفة وأفكار نيتشه وتبنيهم للبعض منها، فكتاب جدل التنوير ) لهوركهايمر وادورنو وكتابات هابرماس في القول الفلسفي للحداثة ) ومقاله نظرية المعرفة عند نيتشه وما أورده في كتابه المعرفة والمصلحا ) تؤكد ذلك . إضافة إلى ما جمع فلاسفة فرنكفورت ونيتشه من مو اقف نقدية تجاه أفكار وتيارات فلسفية معينة، فكل من نيتشه وفلاسفة فرنكفورت نقدا الحداثة والتنوير، وحاول كلاهما تحطيم ايقوناته المعرفية والفلسفية متمثلة بمقولات العقل، الإنسان، الحرية، الذاتية ... الخ ، باستثناء هابرماس اذ كان مع مشروع استدعاء التنوير ومقولات ه، إضافة إلى ذلك نقدهم للمثالية، كما حاول كلا الطرفين تأسيس فكر أخلاقي مغاير للفكر السابق، وإعادة قراءة القيم قراءة تتلاءم مع حجم التغيرات الحاصلة في المجتمع، وهذا ما عمل عليه فلاسفة فرنكفورت بعد الحربين العالميتين، كما حاول فلاسفة فرنكفورت ومن قبلهم نيتشه بإيجاد مخرج وبديل للفكر العقلاني الذي هيمن على الفكر الإنساني لقرون، وتمثل ذلك لدى نيتشه بالجمال وعده المنقذ للإنسانية وللوجود من مركزية الفكر الميتافيزيقي الما ورائي المطلق متمثلاً بتغلغل الروح الديونزيوسية إلى الوجود رمز الحياة والفوضى والموسيقى واللهو، وهي المخلص للفكر الغربي من القيم البالية

التقليدية التي يحكمها النظام والنسقية، والفن والجمال عند فلاسفة فرنكفورت مخلصان للإنسان الغربي من قمع واستبداد السلطات السياسية والدينية والثقافية والأقتصادية متمثلة بالرأسمالية، هذه المواقف اضافة الى روابط آخرى تربِ معهم بنيتشه تمثل اهم مسوغات البحث، باعتبارها اهم النقاط المعرفية التي يلتقي بها فلاسفة فرنكفورت بفلسفة نيتشا .

يعد نيتشه احد ابرز فلاسفة العصر الحديث الذي تركت افكاره تأثيرا بارزاً في الفكر الفلسفي المعاصر، وبدا أثره واضحاً في فلسفات القرن العشرين، وكان ح ضوره مميزاً في فلسفات هذه المرحلة وما يميز الحضور النيتشوي هو نزعته النقدية، فكانت هذه الفلسفات ثورة في التفكير ضد النسق الفكري الدوغمائي " الذي لازم الفكر الفلسفي من اليونان وصولاً الى الفلسفة الحديثة، وهذا ما استشرفه نيتشه في كتابه ما وراء الخير والشر " فهو يقول هؤلاء الفلاسفة المقبلون هل سيكونون أصدقاء الحقيقة " الجدد؟ محتمل جداً لأن كل الفلاسفة احبوا حقائقهم حتى الان لكنهم لن يكونوا بالتأكيد دوغمائيين " وذلك يعني ان الفلاسفة المقبلين لن يكونوا امتدا اً للنسق الفكري الميتافيزيقي الذي لازم الفكر الغربي، ولن تكون حقائقهم مطلقة ولا أفكارهم مقدسة ولا قطعية ولا يقينية، وليست ثابتة ساكنة، بل خاضعة لمبدأ الصيرورة، تؤمن بالتغير والتطور، وهي بالضد من فكر الفلاسفة الدوغمائيين، ولهذا يبشر بهؤلاء الفلاسفة كأرواح حرة تسير على نهجه وتقتفي اثره لأنه هو الذي يمثل تلك ا روح الحرة ولذا فهو يقول فلاسفة المستقبل هؤلاء، على انهم وبكل تأكيد لن يكونوا أرواحاً حرة وحسب، بل شيئاً أزيد، أعلى، مغايراً جذرياً، شيئاً يأبى سوء التقدير والخلط . لكني، إذ اقول هذا بصددنا، نحن دعاتهم والمبشرين بهم، نحن الأرواح الحرة، وبصددهم هم كذلك وبقدر مماثل من الالحاح ". لقد امن نيتشه بان نوعاً جديداً من الفلاسفة سوف يظهر، وهؤلاء الفلاسفة يتسامون بافكارهم التي لا علاقة لها بعقائد الماضي، وما يميزهم ان افكارهم هذه تعبر عن ذواتهم ونتاج مواهبهم، فهم لن يكونوا حبيسي الماضي، وتكمن شجاعتهم بجرأة افكارهم وطرحاتهم .

ويمكن اعتبار فلاسفة ما بعد الحداثة امتداد لنيتشه، وانهم متأثرون بشكل او بآخر بفلسفته، ما يميز الفكر الفلسفي الغربي في هذه المرحلة الأنتقال من المركزية الى غيابها،

١ . نيتشه : ما وراء الخير والشر ، ترجمة جيزيلا فالور حجار، غروب في، بيروت، ١٩٩٥ ، ص ١٤ .
٢ نيتشه : المصدر نفسه، ص ١٥ .

ومن الثنائية الى غيابها ايضاً، ومن الحقيقة المطلقة الى تعدد الحقائق او بمعنى اخر ا ختلاف ، كان نيتشه اللاعب الرئيس في هذا التغير والتطور في الفكر الفلسفي، وهو الحاضر الدائم في المنظومة الفلسفية المعاصرة فأنتج هذا الحضور فلسفات ناقمة على خطاب الحداثة والتنوير ومركزية التفكير، قائمة على نقض أفكاره، فخطاب ما بعد الحداثة يدعو الى غياب أي مر كز او مرجعية او معيارية، ومن ثم اية ثنائية، ولهذا فان انصاره يعدون مجرد استخدام كلمات مثل يقين ) او دوافع ) او حق ) او ذات ) سقوطا في المركزية . [٣] وذلك باعتبار ان مثل هذه الكلمات تتضمن إشارة الى حقائق كلية وثنائيات متعارضة قامت عليها فلسفات الحداثة والتنوير الذي يتصرف إزاء الأشياء تصرف الديكتاتور إزاء الناس . [٤] يقول كلا من هوركهايمر وادورنو في كتابهما جدل التنوير " كان نيتشه شأن القلة بعد هيغل ممن أدرك قيمة جدل التنوير . وكان هو من صاغ العلاقات التصادمية مع السلطة . [٥] هذه النزعة النيتشوية النقدية تجاه كل الأرث الفكري الغربي الذي عده فكراً سلطوياً يجب تهديمه، هي التي جعلت منه قبلة يتوجه لها فلاسفة فرنكفورت وتحديداً موقفه من الفكر التنويري هي التي دفعت هؤلاء الفلاسفة لتبني افكاره، وهذا ما تجسد فعلاً في كتاب جدل التنوير حينما وجدوا في فلسفة التنوير فكراً عقلانياً ، يتافيزيقياً اسطوري .

يقولان ايضاً " كانت المفارقة التي وجدنا انفسنا بمواجهتها طيلة مسيرة عملنا وهي ما توجب علينا تحليله في المقام الأول هي تدمير العقل التنويري لنفسه ".[٦] هذه العبارة تمثل المدخل الرئيس لعملنا، والتي تحتوي على جملة قضايا منها ان العقل التز ويري شكل نظاماً او نسقاً معيناً يمكن استخلاص كل شيء منه كما يقولان في كتابهما سالف الذكر، ثم انقلب هذا العقل على ذاته وحطمه بمعوله، وهذا النظام او النسق قام على مجموعة من المقولات الكبرى التي عدت لحظة انعتاق من عقلية العصور الوسطى، وخروج على الأطر التقليدي ة التي قامت عليها الفلسفة الغربية قبل عصر التنوير، وابرز هذه المقولات ( الذاتية، العقلانية، العلموية،

---

[٣] عبدالوهاب المسيري وفتحي التريكي : الحداثة وما بعد الحداثة ، دار الفكر المعاصر ، بيروت،دار الفكر دمشق ، ا ٢٠٠٣ ، ص ٨٤

[٤] . هوركهايمر وادور و : جدل التنوير شذرات فلسفية، ترجمة جورج كتورة، دارالكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ا ٢٠٠٦ ص ٢٠ .

[٥] هوركهايمر وادورنو : جدل التنوير، ص ١٨ .

[٦] . هوركهايمر وادورنو : جدل التنوير، ص ٥ ١٦ .

الانسانوية، التجريدية، الحرية، الكلية، المساواة، المطلق، الواجب، القانون ..... الخ ) هذا العقل الذي انتج هذه المقولات، تعرض للتدمير من داخله، بمعنى ان مجم وعة من الفلاسفة الذين تتلمذوا و تربوا على مبادئ التنوير هم من قاموا بتحطيم هذه المقولات بمعنى ثورة من الداخل مثل ( نيتشه و ماركس ).

## ١. نقد مقولات الحداثة و التنوير:

ان ابرز مقولة قامت عليها مرحلتي الحداثة و التنوير هي العقلانية، ولعل ما يؤكد ذلك تعريف كانط لـ لتنوير بقوله " هو خروج الإنسان من قصوره الذي اقترفه بحق نفس، وهذا القصور هو عجزه عن استخدام عقله الا بتوجيه من انسان آخر ." واما شعاره لعصر التنوير هو " فلتكن لديك الشجاعة لأستخدام عقلك ' و' ان غرض العقل الوحيد هو الأدراك واستخدامه لغايات دقيقة .' بالنسبة لـ انط كما لديكارت وليبنتز تقوم العقلانية على تحقيق استمرارية منهجية، ان بالأرتقاء باتجاه انواع عليا او بالنزول بأتجاه أنواع دنيا وان عنصر المنهجية في المعرفة يعني التماسك انطلاقاً من مبدأ " وفقاً لهذا الفهم ، فالعقل هو السبيل الوحيد للوصول الى الحقيقة، ومن ث م يصبح المبدأ الذي من خلاله يؤسس للسياقات والانظمة المعرفية، وبالتالي يصبح المركز الذي تخضع له الذات وكل ما ينتج عنها، فهو سلطة معرفية بمعنى لا يمكن ادراك حقائق الاشياء والقضايا الا من خلاله، وسلطة اخلاقية بمعنى تطابق الأفعال والسلوكيات مع مفهوم الفضيلة وا لواجب الكانطي، وسلطة دينية تفرض الايمان بالله وبأبنه، وبالتالي فبدلاً من ان يكون العقل اداة للتحرر من القيود الفكرية يصبح هو قيد يتحكم بالانسان، بحيث يقف حاجزاً امام تطلعات الانسان، وبهذا يقول هوركهايمر ان كلمة عقل ) ظلت تعني، زمناً طويلاً، نشاط المعرفة، و تمثل الآفكار الابدية الخالدة التي ينبغي ان تصلح هدفاً للبشر ".[٨] هذا العقل بوصفه اداة وظفها الفكر الإنساني لصالح ايديولوجية معينة واستمر على هذا المنوال بحيث اصبح ارثاً ثقافياً ميثولوجي ) ينتمي لحقبة معرفية سابقة لا تتناسب مع طبيعة الفكر الذي يؤسس للأندماج بالواقع وليس الترفع والتعالي عليه فكر ينتمي

٧ . كانط : جواب عن السؤال ( ماهي الانوار ، مجلة الفكر العربي، معهد الإنماء لقومي، بيروت، عـ ٨، ، ٩٨٧ ، ص ١٢٩ .

٨ . الان تور ين : نقد الحداثة، ترجمة أنور مغيث، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٩٩٧ ص ٠٨ .

للآنطولوجيا الإنسانية ولا علاقة له بالميتافيزيقا . فعقل التنوير اضافة الى كونه اداتي فهو اسطوري ايضـ . وفي نقده للعقل الحداثي الأنواري يقول هوركهايمر وزميله ادورنو " إذا كنا بالأنوار وبالتقدم الثقافي نريد تحرير الا نسان من الاعتقاد الخرافي في قوى شريرة، وفي شياطين وحكايات خارقة، وفي القدر الأعمى، أي بأيجاز تحريره من كل خوف، فإن ذلك يقتضي إدانة ما تم الاجماع على تسميته بالعقل . وهذه اكبر خدمة يمكن للعقل أن يقدمه ."

اما هابرماس فيرى ان " نيتشه ينظر الى الحداثة، على ان ها لا تشكل اكثر من عصر نهائي في التاريخ الضخم لعقلنة تبدأ بحل الحياة القديمة وبأفول الأسطورة ." لهذا السبب اصبحت الدعوة ملحة لظهور فكر بالضد من نزعة الحداثة والتنوير العقلانية التبريرية التي جعلت العقل اداة للمعرفة وهذا القول يتفق مع رأي نيتشه الذي يرى ان الحداثة حتى الا – كانت في انتصار الوعي، واستلاب الطاقة الانسانية التي تنفصل عن نفسها وترتد على نفسها حين تتطابق مع اله مع قوة غير انسانية على الانسان ان يخضع لها . لقد قادت الحداثة الى العدمية[١] ." اما هابرماس فينظر الى نيتشه بأنه امتداد للفكر السابق عليه، بمعنى انه بلور كل تلك الأفكار التي تحمل طابعاً نقدياً وتقف بالضد من النزعات المثالية والميتافيزيقية في اطار العدمية فقد " اختار نيتشه ان يحذو حذو الموجة التي انطلقت اثر التخلي عن التقاليد الفلسفية الكبرى في اواسط القرن التاسع عشر، والتي حمل نيتشه نتائجها ا لعملية الى الاذهان بشكل ساطع تحت عنوان العدمية .[٢] والعدمية التي يؤمن بها نيتشه هي التي تعني ان القيم العليا قد فقدت قيمتها في ذاتها[٣] . وهي التي " تؤكد بأن ليس هناك حق وانه لاتوجد هنالك طبيعة

---

١ . هوركهايمر وادورنو : جدل التنوير، ص ٦ ـ ٢٧ وينظر ايضاً محمد نور الدين افاية : الحداثة والتواصل في الفلسفة النقدية المعاصرة، نموذج هابرماس، أفريقيا الشرق، بيروت، ١٩٩٨، ص ٨٠ .

١٠ يورغن هابرماس : القول الفلسفي للحداثة، ترجمة فاطمة الجيوشي، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٩٥، ص ١٤٢ .

١١ الان تورين : نقد الحداثة، ص ١٥٤ .

١٢ . يورغن هابرماس حول نظرية المعرفة عند نيتشه، مجلة الفكر العربي المعاصر، عدد ٨ ١٩، مركز الأنماء القومي، بيروت ١٩٨٨ ، ص ٧٥ .

١٣ FriedrichNietzsche: The will to power, Trans by Walter Kaulfmaun and R. Jrlollingdala , U. S. A, 1997.p. 9

مطلقة للأشياء ولا اشياء في ذاتها، وهي عدمية متطرفة [١٤] تشكل فكرة ال عقل والروح والمطلق والاله القيمة العليا والحق المطلق الذي فقد قيمته في فلسفة نيتشه، وبعدمية نيتشه هذه فقدت الحداثة القها وسقطت مقولاتها التي هيمنت على الفكر الغربي لقرون ! ويرى البعض ان فكرة موت الاله من وجهة نظر نيتشه تقود الى العدمية، لأنه بدون الاله لا ي مكن ان يوجد اساس موضوعي ثابت لكل القيم [١٥]. ان العدمية في فلسفة نيتشه تشير غالباً الى تدمير و تحطيم القيم متبعا موت الإله، لكن التحطيم لهذه القيم المعتمدة على الاله لا تعني له تحطيماً مطلقاً لهذه القيم التي تبدو معطاً دائماً في الوجود الانساني .[١٦] والعدمية تشير الى ان العالم يفتقر الى المعنى الموضوعي والغائي، وبالتالي فان القيم الاخلاقية والفلسفية والسياسية والاجتماعية تصبح عبارة عن تأويلات مبدعة خلاقة . تمثل العدمية دلالة على الصيرورة والتحول والتغير والتبدل السريع المنفلت من كل قيود وقيم وهكذا اختفى الاساس والم ركز والاعتقاد الثابت وزال الايمان .

أن ما تلتقي به مدرسة فرانكفورت مع نيتشه في اختزال العقل إلى ما هو أداتي وتحويله إلى مجرد آلة " تخدم تطلعات الذات ورغباتها في السيطرة، من خلال توجيهه نحو مجال المعرفة العملية فقط، لذلك يتبرم فلاسفة من العقل الذاتي الذي ي خدم تطلعات الذات منذ عصر النهضة من حيث أن الفرد يسعى الى الاحتفاظ بذاته، والعقل يوفر له شروط هذه المحافظة وإمكانيات تحقيق أهدافه الخاصة .[١٧] يقول فروم " انكمش العقل فبعد ان كان وسيلة للكشف عن الحقيقة والنفاذ من السطح إلى ماهية الظواهر، اصبح مجرد أداة لأستخدام الأشياء والناس . [١٨] وهذا ما بدا واضحا في فلسفة ديكارت حينما جعل من العقل اداة للمعرفة، والذي يقول عنه نيتشه في الحقيقة ان ديكارت ابو العقلانية اقر بالسلطة للعقل دون سواه،

---

١٤ FriedrichNietzsche: Ibid.p. 14

١٥ Douglas, J. soccio: Archetypesfwisdom, An Introduction to philsophy, fifth edition, u.s.a. 2004 , p.477

١٦ Albert B. Hakim; historical introduction to philosophy third edition, u.s.A, 1997, P.625.

١٧ . كمال بومنير : جدل العقلانية في النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت، الدار العربية للعلوم ومنشورات الاختلاف، بيروت والجزائر، ط ١، ٢٠١٠ ص ٤٠ .

١٨ . اريك فروم : الدين والتحليل النفسي، ترجمة فؤاد كامل، دار غريب، القاهرة ١٩٨٩ ، ص ٥٠ ١ .

لكن العقل مجرد أداة وديكارت كانت سطحياً ١٩ وهكذا مع كانط وهيغل ومعظم الفلسفات المثالية . وكذلك مع التجريبيين الذين جعلوا من العقل اداة بيد الانسان للسيطرة من خلالها على الطبيعة عند بيكون، وفلسفات التنوير وتحديدا الوضعية كما يقول هوركهايمر ايضا جعلت من العقل هو القدرة الذهنية للإنسان التي لا تهتم سوى بالأدوات فقط، بل إن العقل نفسه هو مجرد أدا .[٢٠] ان فلسفات الحداثة جعلت وظيفة العقل الاساسية كأداة فعالة للتحكم والسيطرة على الانسان والطبيعة وفي هذا يقول هوركهايمر إذا كان من اللازم الحديث عن المرض الذي يعرفه العقل، فمن الضروري أن نفهم، أن هذا المرض لم يصبه في لحظة تاريخية معينة، ولكنه أي المرض ) غ ر منفصل عن طبيعة العقل في الحضارة، كما عرفناها حتى وقتنا الحال . فالعقل نشأ من نزعة موجودة في الإنسان، والتي تدفعه للسيطرة على الطبيعة . اما استرجاع عافية العقل، فأمر مرهون بمعرفة طبيعة المرض وأصله، وليس مجرد علاج أعراض .[٢١] وهذا ما يؤكده ماركيوز في قراءته لفل سفة هيغل الجدلية ذات الطابع العقلي فهو جعل للعقل حق السيطرة والتحكم بالإنسان والوجود وفي هذا يقول " ان فلسفة هيغل هي بالضرورة نسق، يضم في داخله كل مجالات الوجود، تحت فكرة شاملة هي فكرة العقل، وفيها يدرج العالم غير العضوي، والطبيعة فضلاً عن المجتمع، تحت امرة العقل .[٢٢] لكي يحقق الإنسان قدرته وسيادته على الطبيعة والمجتمع، اتخذ من العقل اداة لغرض هذه السيطرة، واصبح الإنسان موجوداً عاقلاً، وهذا ما ارادته فلسفات الحداثة والتنوير، لأنها تعتقد حينما جعلت العقل اداتها فأن بأستطاعتها التحرر من القيود والقضاء على كل الس لطات الدينية والثقافية والمعرفيا .... الخ، فالعقل يريد اخضاع كل شيء، والعالم تحكمه قوانين موضوعية، وبالتالي يصبح العقل صاحب السلطة المطلقة على الإنسان والعالم . فبدل التحرر من القيود السابقة يضع الإنسان قيد جديد يتحكم به وهذا ما رفضه فلاسفة فرنكفورت، بوضعهم مفهوم العقلانية النقدية محل العقلانية الأداتي .

---

٩ . نيتشه : ما وراء الخير والشر ، ص ١٣٨ .

٢٠ . ينظرهوركهايمر و أدورنو : جدل التنوير، ص ٢٤

٢١ . ينظرهوركهايمر و أدورنو : جدل التنوير، ص ٠ ٢٢ .

٢٢ . هربرت م ركيوز : العقل والثورة، ترجمة فؤاد زكريا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٩ ، ص ٧ .

إن العقلانية الاداتية، قد ارتبطت بالسيطرة على الإنسان الذي تم اخضاعه للمؤسسات التقنية القمعية وفي ذلك يقول اريك فروم في نقده ثقافة العقلانية الأداتية التي يتحول بموجبها العالم إلى اداة، بما فيها الإنسان، تخضع لعوالم جديدة كأن تكون التقنية أو السلطة او قيم الصناعة والأستهلاك المعنى الذي تعزز بقوة مع الحداثة الغربية وشعارات التنوير مما تسبب بنسيان الإنسان ذاته وحريته من أجل الخضوع لأوهام جديدة [٢٣] في مقابل هذه العقلانية ركز فلاسفة فرنكفورت اهتمامهم على العقلان ية النقدية، التي عمل على توجيه النقد للأفكار والآفعال والمؤسسات، وترفض الامتثال أو الانصياع لما هو سائد وجاهز، وذلك بقصد تغيير الواقع القائم وانقاذ الفرد من السيطر .

**٢.نقد القيم الدينية** :

في نقده لعصر التنوير والعصور التيقنية التي سبقته يقول نيتشه هذه ا عصور التي اعتاد الناس فيها الأعتقاد بامتلاك الحقيقة المطلقة هي اصل هذا القلق العميق الذي يصيب كل المواقف الشكوكية والنسبية بخصوص اية نقطة من نقاط المعرفة ".[٢٤] هذا الموقف اتجاه العقائد الجامدة والمتحجرة هو ما دفع المنظرين النقديين الى تبني افكار نيتشه ونزوعه الذي لا هوادة فيه الى تحطيم الأيقونات المعرفية التي ادعى العالم الغربي امتلاكها .[٢٥] وفي نقدهما لقيم التنوير التبريرية لافكار لاهوتية وتبنيهما للنزعة النيتشوية يقولان هوركهايمر وادورنو على لسان الأميرة جوليت " انها تكره كل اجلال للعقلانية يصعب البرهنة عليها ، الأيمان بالله وبابنه الذي مات ، طاعة الوصايا العشر ، والخلاص من الخطيئة ، تفوق الخير على الشر ، والخلاص من الخطيئة ".[٢٦]

---

٢٣ . اريك فرو : الدين والتحليل النفسي، ص ٠ ١ .

٢٤ . نيتشه : انساني مفرط في انسانيته كتاب العقول الحرة ، ترجمة محمد الناجي ، افريقيا الشرق ، بيروت ٩٩٨ ، ص ٢٤٠

٢٥ ينظر ألن هاو : النظرية النقدية ( مدرسة فرنكفورت ) ترجمة ثائر ديب، منشورات وزارة الثقافة السورية، أفاق ثقافية، دمشق ٠٠٥ ، ص ٧٥

٢٦ . هوركهايمر ادورنوا : جدل التنوير ، ص ١١٧ .

ان عقلانية التنوير ركزت مبادئ الايمان، وجعلت كل مقولاته في خدمة الدين الانسان، العقل ، العلم ) وهذا ما ظهر جلياً في تفكير فلاسفة التنوير امثال كانط وهيجل وفلاسفة المثالية، وغيرهم من الذين " أيديولوجيتهم العقلانية تعتمد بالكامل على وجود الله . [٢٧] وهذا ما يؤكده نيتشه في مقاربته بين المبادئ التي تقوم عليها فلسفتهم مثل الشيء في ذاته ، المطلق ، الإرادة .. الخ ) ومفهوم الله بقوله من الآن وصاعداً فانه يتجلى الاله مبدئياً هيئته في كينونة كل مرة هي أكثر شحوباً وتجريداً، يتحول الى مثال أعلى ، الى ( روح مجرد ) الى مطلق ) الى شيء في ذاته ) انهيار اله وتحطمه : الله يتحول الى شيء في ذاته )[٢٨] . فكانط يعتقد بوجود هذا الكائن الأسمى، ووجوده ضرورة مطلقة، ووحدته مطلقة، وهو أصل كل الأشياء . كما يقول ايضا لتأكيد ذلك إذا نحن تصورنا الله مع جميع الموجودات وكائنا اسمى وعلى من كل الكائنات ، لأن العقل لا يجد اله ورضاءه لا في هذه الكائنات وصفات الاشياء في ذاتها ولا مل ه في نيقها سه شقاق الدوائر من مداده ، ذ ان هذه الظو هر رابط ابشئ مختلف عنها تماما ي غر متع نس ها تماما ). ان الظو ر تفرض دائما وجود الشئ في ذاته وبالتالي تعلن عن وجوده، سواء استطعنا ان نعرفه بدقيقة ادق او لم نستطع . [٢٩] وهذا ما جعل نيتشه لا يفرق بين الشيء في ذاته والله، لأنهم جميعا يمتلكون المقومات نفسها الواجبة الوجود مثل فكرة المطلق والوحدة والذاتية والكلية والأصل ... وهذه المفاهيم ذات طابع ديني تأخذ أهميتها من قدسيتها على حساب الحياة والواقع، لذلك عد نيتشه كانط عدميا بقوله " مع ذلك فهذا العدمي كانط ) ذو الإحشاء المسيحية .. الدغمائية،هذا بكل تأكيد هو الطريق الى الانحطاط، والغريزة غير المؤكدة والملتبسة في كل وفي اي شيء من الأشياء – المضاد للطبيعة كغريز . الانحطاط الالماني كفلسفة : هذا هو كانط ."[٣٠] وعموماً ينظر نيتشه الى كانط كفيلسوف تأملي ميتافيزيقي ولم يخرج عن هذا الاطار على الرغم من نقده للميتافيزيقا .

---

٢٧ . كارين آرمسترونغ : مسعى البشرية الأزلي الله لماذا ؟، ترجمة فاطمة نصر وهبة محمود عارف، سطور الجديدة، ط ١ ، ٢٠١٠ ، ص ٣٠ .

٢٨ . نيتشه : عدو المسيح، ترجمة جورج ميخائيل ديب، دار الحوار، سوريا، ط ١ ، ٢٠٠٤ ، ص ٥٧ .

٢٩ . عمانؤيل كانط : مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة يمكن ان تصير علما ، ترجمة نازلي اسماعيل، مراجعة عبد الرحمن بدوي، دار الكتاب العربي، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٩١ .

٣٠ نيتشه : عدو المسيح، ص ٢٠ .

ان العقل في فلسفة هيغل لا يمكن ان يكون معادياً للدين بل انه سمح بوجود عالم آخر مفارق بشرط ان يتوافق مع تطلعات الإنسان، لهذا السبب وجد في الديانة المسيحية ما تنطبق عليه افكاره الجدلية العقلانية . فهو" يعد المسيحية الديانة المطلقة لأن مضمونها هو الحق المطلق، فمضمونها كما يرى ي ل، يتحد مع فلسفته ج ة ا لس فة رض ض مون المط ق هو صورة كر الد لص، ا لمس يحي هي ت ض هذا المضمون نفسه في صو رة ة و في ا كر سي، ي ني على ي ئأ ل [١] . و القول ب ن المسيحية" تتضمن الحق قة المط قة يعني كذلك بالضرورة انها دين الوحي، او الك شف هو الدين الذ ي شف فيه ا ه عن س ه تم ما ى ما هو ل ه ا ي وصو ه ي ا عي ب، بحيث ظهر الا ن طبيع ه الكاملة [٢] .

هذان المثالان المتمثلان بكانط وهيغل يؤكدان ان افكارهما جاءت لتكرس قيم التنوير لخدمة العقيدة الدينية عن طريق العقلانية والعلموية . كما ان فلاسفة التنوير يعتقدون ان " العلم عاجز عن تفسير استنتاجاته بدون الله ، فالله ضرورة علمية بمثل ماهو ضرورة لاهوتية بدا عدم الإيمان بالله ضلالا وانحرافا يماثل رفض الاعتقاد بوجود الجاذبية . وكان التخلي عن الله يعني نبذ التفسير العلمي الوحيد المقنع للعالم .[٣٣] ان مبادئ التنوير كالإنسان والعقل والذاتية والتشبيه بينها وبين الله كلاهما استخدم كأداة للسيطرة او الهيمنة على الطبيعة هو الذي دفع ادورنوا وهوركهايمر الى نقد هذه الفكرة ورفضها لانها تتأسس على بعد اسطوري سلطوي يمارس الخوف ويعمل بمعزل عن معنى الحرية الذي قامت عليه فلسفة التنوير فالله الخالق بوصفه سيد الطبيعة لا يتمايز عن الغقل المدبر الذي يشبهه . فالأنسان يشبه الله بسيادته على الوجود، بنظرته التي هي نظر السيد، وبالأمر الذي يمارسه . هكذا تصبح الأسطورة تنويراً، والطبيعة ت صبح محض موضوعية .[٣٤]" يريد القول كلا من هوركهايمر وادورنوا ان التنوير يتأسس على افكار لا عقلانية ففكرة الله غيبية ميتافيزيقية كيف تلتقي مع افكار العقل التنويرية وهنا يكمن التناقض والجدل اتجاه فلسفة التنوير، والله يمثل فكرة ذات

---

٣١ . ا لتر س يسر : فلسفة الرو ، ترجمة امام عبد الفتاح امام، دار التنوير، بيروت، ط ٢ ٩٨٢ ص ١٦ .
٣٢ ولتر ستيس لمصدر ن سه ، لصفحا سه .
٣٣ . كارين آرمسترونغ : مسعى البشرية الأزلي الله لماذا ؟ ، ص ٣١ .
٣٤ . هوركهايمر وادورنو : جدل التنوير، ص ٩ ٠ .

ابعاد عدة، الديني والأخلاقي والد عرفي وحتى السياسي، هذه الابعاد كلها تؤكد ممارسة التسلط على الإنسان والطبيعة، وهذا ما ركزته مبادئ التنوير، وهذا التسلط يقتضي الخوف بالنسبة للإنسان، وهنا تفقد دعاوى الحرية قيمتها . اما نيتشه فيعتقد " ان الدين لم يحتو على حقيقة ابداً، لا بشكل مباشر أو غير مباشر ، لا على شكل ركن من أركانه، ولا على شكل حكمة، لأن الدين إنما يولد من الخوف ومن الحاجة، وقد أنسل إلى داخل الوجود من خلال سبل العقل التائه [٣٥] هذه العبارة النيتشوية تفرغ الدين من محتواه، وتؤكد فقدان الدين للعقلانية، ولاتحتوي على أي جانب معرفي يقيني اوحقيقي ي مكن الاستناد اليه كما اعتقد بعض فلاسفة التنوير .

على الرغم من تأثر هوركهايمر وادورنوا بفلسفة نيتشه النقدية، لكنه لم ينج من نقدهم وتحديداً اعلانه موت الله وقتله وماينتج عنه من عدمية تنفي وجود قيم و افكار وعقائد ثابتة، واسس لفكرة بديلة هي ' الإنسان الأرقى ' فحينما يقول " لقد مات جميع الآلهة، فلن يعد لنا من أمل الا ظهور الإنسان الأرقى . [٣٦] هذا القول يؤكد طرح نيتشه بديل ميتافيزيقي واحلال مركزية جديدة محل المركزية التي اعلن قتلها بقوله " ان الله قد مات ونحن قتلناه [٣٧] هذا القول يفسره هوركهايمر وادورنوا بقولهم لقد راد نيتشه إحلال الإنسان الأرقى بدل الله لأن التوحيد بشكله المسيحي الفاسد، قد بدا له مجرد ميثولوجيا ..... إن هذا الإنا المتفوق يبدو محاولة يائسة لإنقاذ الله الذي مات، وعودة جديدة إلى الجهد الكانطي الذي يحاول تحويل القانون الإلهي إلى استقلالية بهدف إنقاذ الِ ضارة الذي أعادت إليها الشكية الإنكليزية، الروح . [٣٨] مفهوم الإنسان الأرقى عند نيتشه لا يختلف عن مفهوم الواجب او القانون الأخلاقي الكانطي، على اعتبار ان كلاهما يسعى للإستقلال عن القوى الخارجية، حينما جعلا من الإنسان مصدر التشريع، هذه

---

٣٥ . نيتشه : انساني مفرط في انسانيته، ص ٣٥

٣٦ نيتشه : هكذا تكلم زرادشت ، ترجمة فليكس فارس ، المكتبة الاهلية ، بيروت ، بلا تاريخ ، ص ١٠٥

٣٧ . نيتشه : العلم الجذل، ترجمة سعاد حرب، دار المنتخب العربي، بيرو ، د ا ١٠٠١ ص ١١٨ ثم يقول في ما وراء ا خير والشر لقد نقض الله بوصفه الأب " نقضاً جذرياً وبوصفا القاضي ' و ا يب " أيضاً وكذلك أبطلت " إرادته الحر " نيتشه : ما وراء الخير والشر، ص ٨٩ و قول ايضا لوكان هناك اربابا اكنت اتحمل ألا كون ربا؟ اذن ليس في الكون اربابا ' نيتشه : هكذا تكلم زرادشت،ص ١٢ .

٣٨ . هوركهايمر وادورنو : جدل التنوير،ص ٣٤ .

الأفكار جعلت التنوير يتحول صنماً وميثولوجيا يجب تهديمها وتأسيس فكر مجرد من الماورائيات والمركزيات يتلائم مع طبيعة العصر الذي يرفض الهيمنة والتسلط .

### ٣. الفن بين نيتشه وفلاسفة فرنكفورت:

رفض نيتشه كل ماهو عقلي لصالح الانفعال الحدسي الليبيدي للفن الديونزيوسي ــ نظرة جمالية عن الوضع ا لبشري تؤكد الحياة، ففي كتابه مولد المأساة ركز على الجانب الجمالي في الفكر والفلسفة الأغريقية على حساب الجانب العقلي الذي كان ثانوياً . والحقيقة بالنسبة له مظهر قد تجمد يريد نيتشه ان يتجاوز الحقيقة باسم الفن، الذي يقبل براءة الصيرورة والذي هو ارادة المظهر .[٣٩]

ان السؤال الأساسي في مولد المأساة بالنسبة إلى نيتشه هو : إلى أي حد بدا الفن الإغريقي قادراً على الإعلاء من شأن الحياة، وإلى أي حد استطاع أن يحافظ عليها؟ ومن شأن غريزة نيتشه الكامنة في أعماقه أن تجعل من الفن قوة تدفع الحياة نحو الأعلى وهذا ما اثبت جدارته في عمله الأول .[٤٠] يرجع نيتشه الفن الى نفسية الفنان والى شعوره المتزايد بالقوة . انه في خدمة الحياة المفهومة كارادة قوة وكجنس وكجسد معبر .[٤١]

يفسر نيتشه الحياة الفنية لدى الاغريق بانها نابعة من مقولتين اثنتين متمثلتين بالموقف الابولوني والديونيزيسي[٤٢]* فهو يقول " من الممكن ان نقدم خدمة كبيرة لعلم الجمال

---

٣٩ رودلف شتاينر : نيتشه مكافحاً ضد عصره، ترجمة حسن صقر، دار الحصاد، دمشق، ا ٩٩٨ ،ص ١٣ .

٤٠ رودلف شتاينر : المصدر نفسه، ص ١٣٣ .

٤١ جان لاكوست : فلسفة الفن ،ترجمة ريم الامين ، عويدات للنشر والطباعة ،بيروت ،لبنان ، ٢٠٠١، ،ص ١٢ .

* ان اتباع ديونيزيوس يبحثون عن وسيلة للعودة الى رحم الوجود فراراً من سجن الذات، والموسيقى واللهو واللعب والسكر هي وسائلهم والنشوة الصوفية الجماعية هي غايتهم . وهو يمثل الانسان البدائي . أما أبولو فهو إله الشمس ، اله النظام والعقل، يتجسد في حلم الوهم . وهو يمثل الانسان المتمدن وتؤدي عبارة ابولو الى التفاؤل وتصر على الشكل الجمالي المرئي والفهم العقلي يساعداننا في تحصين انفسنا ضد ارهاب ديونزيوس ولكي يكون اليونان قادرين على الحياة فقد كان عليهم أن يضعوا امام اعينهم السيطرة على النفس ومعرفة الذات والتأمل والطر ق الوسد ٢؛ ٤٢ لورانس كيتي شير : اقدم لك نيتشه ، ص ١٩ .

حين نتوصل إلى إدراك يقيني، وليس من خلال التفكير المنطقي فقط، بأن مقومات نمو الفن المستمرة من الثنائية المتمثلة في ابولو وديونيزيوس . [٤٣] الاولى تمثل فن التصور والثانية فن الإرادة، الأولى تمثل الثبات والاستقرار والسكون، بي نما الثانية تمثل التطور والتغير والصيرور . فعندما يرفع صاحب التصور تصوراته الى مستوى المثال، ثم يجسد تصوراته المثالية في اثار فنية عند ذلك ينشأ الفن الابولوني فهو يضفي على موضوعات التصور المفردة الطابع الابدي من حيث انه يرسخ الجمال فيها غير انه يبقى ثابتا في عالم التصورات .[٤٤] اما الفنان الديونيزيسي فلا يعنيه في اثاره الفنية أن يعبر عن الجمال فقط، وإنما أن يتمثل بذاته الفعل الإبداعي للإرادة الكونية . إنه يسعى من خلال حركاته الخاصة أن يصور روح العالم . وهو يجهد نفسه كي يصبح تجسيداً للإرادة . وهو يصبح بذاته أثرا فنيا .[٤٥] هذان الموقفان الفنيان سيبقان في صراع ابدي لانهما متناقضان ولا يلتقيان الا عند مقولة الفن فقط، هذا الصراع ظهرت اثاره عند نيتشه حينما رفض فن عصر النهضة ذو الطابع الديني، وموسيقى فاغنر المأسوية في الفترة الرومانسية، وكل الفنون التي لا تتوجه نحو الارتقاء والارتفاع بالحياة وبالوجود . نيتشه يعلن انتماءه للروح الديونزيوسية الرافضة لكل القيم والانساق التقليدية المتحررة من كل القيود، يقول نيتشه " هذان الاتجاهان المتعارضان جداً يتماشيان جنباً الى جنب في جفاء شديد عادة بينهما، متسابقين نحو استدراك جذور اكثر قوة، ا يعطي لصراعهما المتعارض طبيعة ابدية مفارقة فلا يلتقيان إلا عند عبارة الفن فقط . [٤٦]

والفنان كما يعرفه في كتابه ' تأملات غير عصرية " او " افكار في غير اوانها " بقوله الفنان الحر بحق هو الذي لا يستطيع شيئاً آخر إلا أن يفكر في الفنون كافة . إنه الرسول الذي يد قد المصالحة بين مدارات جمة تبدو في الظاهر متخاصمة . يصنع من جديد وحدة المقدرة الفنية وكليتها . وهو في هذا لا يعرف كنهها، ولا يحق له أن يتوقع شيئاً منها، إذ إنها لا تظهر إلا من خلال الفعل ".[٤٧] وهذه الوحدة لا يقوم بها اي انسان بل ذلك الفنان الذي يمتلك خيال

---

٤٣ . نيتشه : مولد التراجيديا، ص ٢٩ .

٤٤ رودلف شتاينر : المصدر السابق، ص ١٢٩ .

٤٥ رودلف شتاينر : المصدر نفسه ، ص ١٢٩ .

٤٦ . نيتشه : مولد التراجيديا، ترجمة شاهر حسن عبيد، دار الحوار، سورية، ٢٠٠٨ ، ص ٩ ١٠ .

٤٧ نقلاً عن رودلف شتاينر : نيتشه مكافحاً ضد عصره ،ص ١٣٧ .

رحب تجاوز الافاق الضيقة التي اختزلها الفكر العقلاني، وهذا الخيال مرتبط بالفعل الجمالي الذي يظهر في الاعمال الفنية . التي يجب ان تركز على الحياة وتسمو بالقيم الإنسانية وترتفع بها حتى تصبح النموذج الحقيقي لارادة القوة . وفي هذا الصدد يقول نيتشه " الفن ولا شيء غير الفن .... انها وسيلة عظيمة لجعل الحياة ممكنة، وفيها اغراء كثير وتحفيز اكبر ... فهو القوة الواقدة المتنامية الوحيدة لكل الارادات التي ترفض الحياة كما تفعل الديانات .[٤٨] هنا يضع نيتشه الفن بالضد من الدين فالأخير يرفع من قيمة العالم المفارق، ويحط من قيمة العالم الظاهر المحسوس، بينما الفن يعمل بالعكس من الدين، لانه يدفع الإنسان نحو الارتقاء والسمو بالحياة عن طريق ارادة القوة . وعن طريق الفن وحده يستطيع الإنسان ان يتحرر من اخلاق الضعفاء والدهماء التي هي انتاج المسيحية وهو الذي يرتقي بالإنسان ليمثل اخلاق القوة وفي ه ذا الصدد يقول هوركهايمر " ان الحاجة ماسة للفن لدى نيتشه للتحرر من التراجيديا، وللتحرر من اخلاق الشفقة والتسامح .[٤٩] "

ان جماليات نيتشه كفلسفته ديونسيوزية بمعنى انها ترفض العقلانية والنسق والنظام والتصور الذي يهيمن على الفنون ان الفنان النيتشوي يمثل السيد الذ ي ينتج اخلاقه بنفسه كذلك هو يفعل مع الفن فهو يجب ان يمتلك ارادة مبدعة تنتج اعمالاً فنية ملؤها الفرح والمسرات واللهو، تعبر عن كينونة الوجود ولا علاقة لها مع العالم المثالي فالهروب من الواقع بداع التعالي والتسامي عليه، يمثل اعدام للحقيقة وتغييب لمفهوم الظاهر ة، وفي ذلك تشويه للحقيقة الإنساني

والفن لايقوم على تصورات بل على الخيال، لان الخيال حين يقدم شكلاً من صورة الوعي بالواقع التي تتجاوز المكبوت والمقموع، فهو يقوم بوظيفته المعرفية وهكذا فالخيال يقودنا الى الاستطيق .[٥٠] وهذا ما يؤكده ادورنوا بقوله " ان الفن كان ... دائماً وسيبقى قوة للاحتجاج الإنساني ضد قمع المؤسسات التي تمثل الهيمنة الاستبدادية والدينية وهيمنات

---

٤٨ . FriedrichNietzsche: The will to power, p.452

٤٩ هوركهايمر وادورنوا : جدل التنوير ، ص ٢٣ .

٥٠ رمضان بسطاويسي محمد : علم الجمال لدى مدرسة فرنكفورت، أدورنو انموذجاً، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ١٩٩٨ ، ص ٢٥ .

آخرى . [٥١] يرى أدورنو أن تحرر الإنسان من الهيمنة بكل أشكالها لا يتم من خلال الاحتجاجات العامة او التحرر الجنسي أو العمل الثوري، وإنما من خلال الفن الأصيل الذي يحمل في طياته إمكانية هدم ونسف ما هو قائم، والمعرفة الحقة والأعظم هي الفن وليس غيره كالعلم .[٥٢] فالعمل الفني الحقيقي يسعى لنفي استلاب حرية الإنسان، وذلك عن طريق تأكيد الشكل الاستطيقي، لأن قوانين هذا الشكل تنفي الق وانين المضادة للحرية .[٥٣] فالفن ينفي الاستلاب واللاحرية، كما يدعو الى تجاوز الواقع الظاهر والارتقاء بقيم الجمال التي تظهر العوالم المخفية واظهار الجوانب التي اغفلها العقل الأداتي لانه يمثل اداة للقمع وكبت الحرية . ان ما تكشفه الاعمال الفنية من حقيقة ومصداقية تقف ضد كلية العقل الأداتي تجعل الفن هو القادر على تحقيق وجود غير مغترب للأنسان، ويخرجه عن أشكال و مظاهر التشيؤ الموجودة في المجتمع ويخلصه من سيطرة وصنمية السلع السائدة في النظام الرأسمالي . [٤]

وقد تابع ماركيوز آراء أدورنو هذه وذكرها في كتابه الحب والحضارة ) فبين " أن رفض الفن للواقع، هو صورة احتجاج على القمع غير الحتمي .[٥] "

يتفق ادورنو مع نيتشه في ان الفن بديل للفكر العقلاني المثالي التصوري الذي مارس هيمنة واستبداد وشكل مركزية لا يمكن تدميرها الا من خلال العمل الفني، ففلاسفة فرنكفورت وهم يبحثون في الأستطيقا وجدو بنيتشه الذي هدم الميتافيزيقا القديمة التقليدية مخلصهم، الا ان اللغة التي بها يكون الهدم لا تقدر على التخلص نهائياً منها، فوجدو ضالتهم او اللغة البديل في المبحث الفني الجمالي، وما يتميز به من لغة مجازية تعبيرية، وحينما ننزل بالجمالية من

٥١ يول لوران آسور : مدرسة فرنكفورت، ترجمة سعاد حرب، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ، ٩٩٠ ، ص ١٢٤ .

٥٢ . علي عبود المحمداوي : الإشكالية السياسية للحداثة ، منشورات الاختلاف ودار الأمان، الجزائر والرباط، ٢٠١١، ، ص ٥٠ .

٥٣ Adoro: Aesthetic Theory, p373.

٥٤ المصدرنفسه ص ٥٠ .

٥٥ ماركيوز : الحب والحضارة، ترجمة مطاع صفدي، بيروت، دار الآداب، بيروت ٩٧١ ، ص ١١٧ .

المطلق الى النسبي يصبح العمل الفني في صميم الجسد الذي يستعيد مكانته البدائية المفقودة، فالجسد وهو في الطبيعة ينهض بجميع حواسه ليتمتع بما هو جميل .

ان الفن عند ادورنو يسعى نحو الكلية، أي يضفي على موضوعاته طابع الشمول، وهنا يتقارب في طرحه هذا مع نيتشه في تعريفه سابق الذكر الذي جعل الفنان يمتاز بمعرفة شاملة وكلية بالوجود وبالفنون يقول هوركهايمر وادورنوا " يمتاز العمل الفني بطبيعته بالمظهر الجمالي، إنه تمظهر الكلية في الجزئي . كما أن العمل يقوم بوظيفة ثنائية، إذ من خلاله يكتسب الشيء بعداً روحياً ويصبح تعبيراً عن قوى الطبيعة . وهذا ما يشكل هالته، والفن بوصفه تعبيراً عن الكلية فهو يسمو ليطاول ما يمثله المطلق، الأمر الذي دفع الفلسفة لترفعه على المعرفة المفهومية . [٥٦] هذه المقاربات تؤكد مدى توافق نيتشه وادورنو بجعلهما الفن المهرب الحقيقي للإنسان من مركزية العقل وافكاره المثالية التي تناقض مع الوجود .

## ٤. الأخلاق النيتشوية في مرآة فلاسفة فرنكفورت:

لقد أنكر نيتشه وجود قيم مطلقة أو معايير ثابتة لا تتغير ورفض حتى محاولة ربط القيم المطلقة بالواقع كما أنكر دور العقل في تأسيس المنظومة الاخلاقية القائمة على وجود الخير في ذاته والحق في ذاته وال واجب والفضيلة والقانون الاخلاقي، وقد ذهب نيتشه الى ربط الاخلاق بالانسان بوصفه كائناً متغيراً متطوراً وكأننا نرى نيتشه هنا يعود الى مقولة السفسطائي بروتاغوراس ( الانسان مقياس الاشياء جميعاً )[٥٧] وهكذا يرى نيتشه ان طبيعة الاحكام والافعال متغيرة من زمان الى آخر ومن مكان الى آخر فلا يوجد حكم اخلاقي مطلقا و ثابتا كما لا يوجد فعل صحيح وفعل خاطئ دائماً فالحكم الاخلاقي على الافعال غير ثابت ومختلف باختلاف الناس وله دوافع عدة تؤدي الى اصداره على النحو الذي يصدر عليه .[٥٨]

---

• يقول نيتشه في رفضه للمثالية [illegible] تدعت فكرة [illegible] والعالم الحقيقي من [illegible] تزيد [illegible] الم الواقعي الوحيد لموجود من كل [illegible] مة [illegible] عقولية، و [illegible] مهمة، وابتدعت فكرة الروح والعقل واخيرا الروح الخالدة [illegible] دفن [illegible] جسد واصابه بالمرض ."

٥٦ . هوركهايمر وادورنو : جدل التنوير، ص [illegible] .

٥٧ . ينظر افلاطون ،محاورةتيتياتوس،ترجمة ،اميرة حلمي مطر ،الهيئة العامة للكتاب ٩٧٣ ،ص [illegible] .

٥٨ عبدالرحمن بدوي : نيتشه ، مكتبة النهضة العربية، القاهرة، [illegible] ٩٦٥ ، ص ٧١ .

ففكرة الواجب والامر القطعي لا معنى لها في عالم متغير ويجب ازالتها واعتبارها كجزءاً من تاريخ الاخلاق القديمة انها لا تصلح للتطبيق على ارض الواقع وفي هذا يقول نيتشه ان الاخلاق في كونها تدين في المطلق وليس بالقياس الى الحياة او مراعاة للحياة هي خطأ جوهري لا يـ ـي بأية شفقة ويتعلق بمزاج منحط اساء سابقاً بلا حد وا ... اما نحن الآخرون نحن اللا اخلاقيون فقد فتحنا قلبنا كبيراً على العكس لكل تفهم ، لكل تفكير ، لكل موافقة لا نحب ان نقول ا ـ را ن يشرفنا ان نكون اولئك الذين يقولون نعـ ).[٥٩] دلالة نعم " هنا تعني ممارسة فضيلة العطاء وليس الاخذ وهذا ماسعى له نيتشه في اخلا ق السادة، المبدع للقيم هو الذي يمنحها فليس من اللائق به الاخذ وتلك ميزة العبيد ذلك الإنسان الذي يعجز عن صنع او ابداع بل دائم الطلب من الآخرين، والآخرين عند نيتشه كل الذين مارسوا العبودية على البشر " الله ، الدين ، النبي ، العقيدة ، الكنيسة ، اللاهوتي ، المـ ثالـ ... الـخ " هذه المؤسسات هي التي تمارس دور السيد في الفكر الديني والفلسفي المثالي، تمنح وتعلم الإنسان الاخلاق والقيم، وهذا مايرفضه نيتشه وفلاسفة فرنكفورت كهوركهايمر وادورنوا واريك فروم وهابرماز وغيرهـ . هولاء جميعاً ارادوا للإنسان ان يضع منظومة قيمية واخلا قية ولكن بصيغ وفهم مختلف من فيلسوف الى آخر . وفي قراءته لأخلاق العطاء النيتشوية يقول فروم " للفرد عند نيتشه اهمية عظيمة للغاية، والفرد القوي هو الذي لديه ا لطفـ ) حقيقي ونبل وعظمة في الروح التي لا تعطي لكي تأخذ بأنها لطيفة . ان ماهية هذه الرؤية هي هذا الحب ظاه رة من ظواهر الوفرة، مقدمته المنطقية هي قوة الفرد القادر على العطاء . الحب توكيد وانتاجية .[٦٠] يتفق فروم مع نيتشه في الأعتقاد بأن الضمير الحقيقي هو ما يعبر عن الذات الإنسانية بشكل فعلي وخلاق في الحياة ويعبر عن مصلحة الإنسان وسعادته وأنتاجيته .[٦١]

نيتشه ومن سار على نهجه يفتحون عقلهم وقلبهم لكل الناس الذين يرفضون الخضوع لفكرة الاخلاق المطلقة التسلط ة التي جاءت بها الأديان والفلاسفة المتدينون الذين مثل

---

٥٩ نيتشـ افول الأصنا ، ترجمة حسان بو رقية ومحمد الناجي، افريقيا الشرق، بيروت، ا ٩٩٦ ، ص ٢ .

٦٠ فرو : الإنسان من اجل ذاته، ترجمة محمود منقذ الهاشمي، منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق، ٠٠٧ ، ص ٥٩ ١٦٠ .

٦١ . قاسم جمع : انظرية النقدية عـ د اريك فروم، منتدى المعارف، بيروت، ا ٠١١ ، ص ٢٠٠ .

القساوسة، فالاخلاق المطلقة تتنافى والحياة الواقعية . وهذه تشكل بالنسبة لنيتشه قمة الفكر العدمي القائم على الحياة وانكاره وبخيس قيمتها وليس العكس

معظم الفلاسفة لا يعطون سوى قيمة دنيا للحياة، النظرة الدونية تجاه الإنسان بوصفه أداة " تعني سلب الحياة قيمتها ونفيها، لذلك عدّ نيتشه هؤلاء الفلاسفة عدميين * والحط من قيمة الحياة يعني انحطاط قيمة الوجود ذاته، ونفي لعالم الواقع الظاهر بوصفه الحقيقة التي لا يمكن نفيها لأجل وجود متعال ومترفع على الوجود وهو العالم الحقيقي أو العالم المجرد . فنيتشه يقول " ان تقسيم العالم الى عالم حقيقي ) وعالم ظاهر ) سواء على الطريقة المسيحية، او على طريقة كانط الذي ليس في نهاية الأمر سوى مسيحي مستتر ) لا يمكن ان يصدر الا بايعاز من الانحطاط، ولا يمكن ان يكون الا علامة حياة افلة ...[٢] وقد بشر نيتشه بعصر جديد تصبح للحياة فيه قيمة عليا على حساب مقولات فارغة لم تثبت حقيقتها ولم تصل الى اليقين بعد فهو يقدس الحياة ويعطي للواقع والعالم الظاهر اهمية على حساب المثل والقيم العليا كعالم الشيء في ذاته والعالم الحقيقي المطلق . ان الغاية من الحياة هي في علائها على نفسها . وليس في البحث خارجها عن غاية ،بل يجب ان تكون جزءا من العالم الظاهر، الحياة التي نشعر بها وليست تلك المفارقة او في عالم المثل كما يدعي افلاطون او الاشياء في ذاتها كما هي عند كانط .

الحياة عند نيتشه هي التي عرفها بقوله ان تحيا يعني ان ترمي عنك شيء يموت ،ان تحيا ،يعني ان تكون قاسيا ،متعنتا في كل ما يضعف فينا ويموت .[٦٣] ونيتشه يبرر قوله بأن الحياة لا تؤخذ بمعناها السلبي ،بل الإيجابي،بمعنى ان تنمو وترتقي بذاتك كفرد ،وتقتل الضعف في داخلك، وهذه هي ارادة القوة .

يعد نيتشه الحياة مصدر سعادة وفرح بقوله ما الحياة الا ينبوع مسرة[٦٤] والصدق عنده يعني، ان تكون الحياة جزءا من الحياة وتستمد منها او متابعة لها أي ان

٦٢ نيتشه : أفول الأصنام ، ص ٣٢ .
٦٣ نيتشه : العلم الجذل ص ٥٠ .
٦٤ . نيتشه هكذا تكلم زرادشت ،ص ١٢٣ .

خضع ص رورة و تغير، وما يحدث ة يدث لها وعليه تصبح الحياة حـ قة، والحـ ية حـ .

تلك الافكار النيتشوية وجدت صداها في مدرسة فرنكفورت وتحديداً عند اريك فروم، فهو يتفق مع نيتشه في نفيه لأي مصدر مفارق يضع القيم ويمارس سلطة على الإنسان، ان كان هذا المصدر وضعي او سماوي، ويعتقد ان الإنسان هو المعيار الحقيقي للقيم وهو مصدرها وموضوعها .[٥] فلا يمكن وضع قيم لا تتطابق مع الفهم الإنساني او تتوافق مع رغباته وتطلعاته، فالفلسفات الإخلاقية التسلطية كما يرى فروم تنفي قدرة الإنسان على معرفة الخير والشر، وهذا الرأي يتطابق مع مواقف نيتشه من الفلسفا ت والأديان التي تمارس دوراً سلطوياً على الإنسان وتجعل منه اداة بيدها حينما وضعت له مجموعة من المفاهيم القيمية والأخلاقية وعليه الألتزام به .

وفروم يدعو الى فلسفة اخلاقية انسانية تلتقي ببعض افكارها مع ما ذكرناه اعلاه عند نيتشه منها قوله " فلسفة الأخلاق الإ سانية تعتمد على مبدأ ان الإنسان نفسه هو الذي يحدد مقياس الفضيلة او الأثم، وليس السلطة التي تتجاوزه .[٦٦] يريد ان ينفي فروم اي دور للسلطات الدينية والثقافية والسياسية في تحديد طبيعة العمل او السلوك الأخلاقي الذي يسير بمقتضاه الإنسان . تلك الفلسفات الأخلاقية الت سلطية تستبعد اي دور للإنسان بقوله " تنكر فلسفة الأخلاق التسلطية قدرة الإنسان على معرفة الخير والشر، ومانح المعيارــ هو على الدوام سلطة تتجاوزه، ولا يتأسس نظام كهذا على العقل والمعرفة .[٦٧] والفلسفة الاخلاقية لكي تسمو وترتقي بالحياة، يجب ان تضع الإنسان في المقدم ة وتجعل منه المركز الذي ينتج القيم كما ينتج الأفكار وهذا ما فعله نيتشه والسفسطائيين من قبله وفروم من بعده في فلسفته الأخلاقية " المتمركزة حول الإنسان، وليس معنى ذلك ولا ريب أن الانسان مركز الكون، بل بمعنى ان أحكامه القيمية ككل أحكامه الآخرى وحتى ادراكاته م ترسخة في خواص وجوده، وليس لها معنى الا بالإشارة إليه، والإنسان فعلاً هو مقياس كل الأشياء .[٦٨] نيتشه وفروم

---

٦٥ ينظر فرو : الإنسان من اجل ذاته، ص ٤ .

٦٦ . المصدر نفسه ص ٧ .

٦٧ . المصدر نفسه ص ٥ .

٦٨ . مصدر نفسه ٨ ، ٩ .

يتفقان حول كون الإنسان يخلق مقاييس جديدة وموازين جديدة ويعطي الحياة شكلاً جديداً بصفته مبدع . وهو الذي يحدد طبيعة القيم والمعتقدات بحرية تامة غير ابه لأ ي سلطة فهو يخلق قيمه والحق الذي يحدد شروطه من صنعه هو و لا يتلقاها من اي مصدر آخر .[٩]

فلسفة فروم تتوجه نحو الحياة والاهتمام بها والإنسان ينزع نحو الارتفاع والارتقاء بمعاني الحياة على حساب الموت الذي يمثل العدم، فالحياة فضيلة والموت رذيلة وفي هذا يقول فروم " ان الاختيار بين الحياة والموت هو بالفعل الخيار الأساسي في فلسفة الأخلاق . إنه الخيار بين الإنتاجية والتدميرية بين الإستطاعة والعجز، بين الفضيلة والرذيلة . وبالنسبة إلى فلسفة الأخلاق الإنسانية فأن كل المجاهدات الشريرة موجهة ضد الحياة، اما الخير كله فهو في الحاجة الى حفظ الحياة وتفتحها . [٧٠] الحياة تعني ان الإنسان يستطيع ان ينتج ويبدع ويتطور ويتقدم، بينما الموت يقف عائق امام تطلعات الإنسان تلك، فالحياة تمثل ارادة البقاء بينما الموت ارادة اعدام ونفي للحياة، والإنسان في صراع بين الأرادتين الأولى تمثل الخير والآخر ى تمثل الشر اراء فروم في الحياة تتوافق مع اراء نيتشه بالموضوع ذاته . يقول نيتشه " لا لم تخيب املي الحياة، كل سنة أجدها أفضل، أشد رغبة، وأشد غموضاً .... الحياة وسيلة للمعرفة عندما يملك القلب هذا الشعور يمكن ان نعيش ليس فقط بشجاعة ولكن بسعاد . [٧١] الحياة تعبر عن الصيرورة والتغيير المستمر، وبأعتبارها تمثل الحقيقة فبالنتيجة لا يمكن ان تكون الا تأويلات او استعارات تتعدد قراءتها بأختلاف الافكار والناس، وبالنتيجة لا يمكن اعطاء فهم احادي لمعنى الحيا

يرى فروم ان نيتشه احد الفلاسفة الذين اكدو على حقوق الفرد بالمطالبة بالسعادة بقوة اكبر مما اكدها كانط وينظر الى فلسفته كرد فعل وتمرد على تبعية الفرد القائم على التجربة والمعاينة للسلطات والمبادئ التي هي خارجه . هذه الرؤية تؤكد استلهام فروم بعض افكار نيتشه النقدية التي ترفض الممارسات السلطوية بكل انواعها، وهذا ما بدا واضحاً في موقفه من الاخلاق التسلطية ويعتقد فروم ان احاسيس القلق وفقدان الطمأنينة في شخصية نيتشه هي التي دفعته الى القول بـــ " الإنسان الإرقى " كما يؤكد على تأثر نيتشه بنظرية

---

١٩ . ينظر اويغن فنك : فلسفة نيتشه ، ترجمة الياس بديوي، وزارة الثقافة، دمشق ٩٧٤ ، ص ١٩ .
٧٠ . فروم : المصدر السابق، ص ٤٥ .
٧١ . نيتشه : العلم الجذل، ص ٧٧ .

التطور والبقاء للأصلح .[٧٢] وجهة نظر فروم لا تتفق مع ما يراه نيتشه بشأن نظرية التطور الارونية فهو يرى ان مذهب دارون في تنازع البقاء مذهب باطل، اذا كان يريد ان يفسر به جوهر الحياة والوجود، فليست الحياة تنازع البقاء، فتلك حالة شاذة، وإنما تنازع القوة والسيطر . ويصف الدارونية بالبؤس والضيق ويقول ليس الصراع من أجل الوجود سوى استثناء، تقلص اني لإرادة ا لحيا : يبقى ما يخاطر به في الصراعات الكبيرة والصغيرة هو التفوق والتكاثر والاتساع والمقدرة تبعاً لـــ ارادة الاقتدار " التي هي بالضبط ارادة حياة [٧٣] ففي بعض الاحيان يأتي الصراع بالضعفاء على حساب الاقوياء، وذلك بنظر نيتشه لكثرة عددهم وتفوقهم ودهائهم، وهذا ما تو فر في المسيحية واستطاعت الانتشار بصورة سريعة وسط المجتمع اليهودي ومن ثم الروماني الى ان هيمنت على كل اوربا، وهذا في بعض الكائنات الاخرى كالحيوانات فبعضها يتميز بالقوة والحجم الكبير والضخم لم يستطيع المقاومة والتلائم مع الظروف المحيطة كالديناصورات انقرضت، ل كن النمل لم ينقرض، وبالنتيجة فالصراع بين ارادتين، ارادة الحياة او القوة وارادة الفناء، والبقاء للأرادة الحرة ارادة الوجو

٧٢ . ينظر فروم : المصدر السابق، ص ٥٦ ، ٥٨ .
٧٣ نيتشه : العلم الجذل ، ص ١٠٣ .

الخاتمة :

تمثل فلسفة نيتشه فكراً متاحاً يمكن للجميع قراءته وتأويله، وهذا ما فعله فلاسفة فرنكفورت، فهم لم يعلنوا صراحة تبنيهم لأفكار نيتشه، لكنهم اعادوا قراءته بما يتلائم مع مواقفهم النقدية، باعتباره من اوائل الفلاسفة الذين خرجوا على ميثولوجيا التنوير

يلتقي فلاسفة فرنكفورت مع نيتشه في نقده للتنوير ولكل مقولاته التي شكلت مركزية معرفية تتحكم بالعقل الغربي لردح طويل من الزمن، الى ان حل ت اللحظة النيتشوية لتنسف كل تلك المقولات، ولتؤسس لمرحلة جديدة تقوم على نسبية الحقيقة و المعرفة، وتحطيم اصنام التنوير بمعوله الهداد . ويمكن ايجاز اهم الافكار التي يتفق بها فلاسفة فرنكفورت مع نيتشه في عدة نقاط اهمها ما يأتي :

١ . نقد المبادئ التي قامت عليها الحدا ة وعصر التنوير كـ ( العقلانية ، الذاتية ، الحرية ، العلموية ). فالذات في فلسفة نيتشه لم تعد سوى وهم، والعقلانية تمثل الهيمنة والمركزية على حساب الحياة، والحرية تمثل انحراف عن قيم الإنسان الارقى او النبلاء وتساوي بينهم وبين العبيد، كما انتقد مركزية العلم ا ذي ازاح الإنسان من امامه، وهذا عكس ما اراده نيتشه من الإنسان باعتباره المبدع الخلاق . هذه المقولات الميتافيزيقة مثلت قيم مطلقة لدى الغرب، سعى نيتشه الى زعزعتها ومن ثم هدمها، وهذا ما وافقت عليه مدرسة فرنكفورت .

٢ . جعل الفن والجمال كبديل لكل الانساق والمركزيات ا لتي تأسست او بنيت عليها فلسفة الانوار . وهذا ما يؤكده نيتشه حينما تبنى الروح الديونزيوسية بأعتبارها ترمز للاعقلانية، وهي التي تسطيع تحرير الإنسان الغربي من استبداد العقل، والفكر الديني المفارق، والفردانية بكل اشكالها، ويحرره من الروح التشاؤمية . وهذا ما ظهر واضحاً في كتابات ادورنوا تحديد . وديونزيوس كما يرى هابرماس يمثل المخلص الذي يسعى الى تجديد الغرب .

٣ . ان الحقيقة عند نيتشه لا توجد إلا إذا كانت صيرورة وهو المرجعية الاساسية لأدورنو الذي يؤمن ان الفن الحق هو المتحرر المفتوح على المستقبل . وهو الذي يقابل الفن الا داتي . والحقيقة في الفن ليست الوعي العقلاني، بل هي الشكل الذي يتخذه الوعي بالواقع دون الاندماج به والتي تؤسس واقعها الخاص بها . ويدعو الى تحرير الفن من الأداتية والمحاكاة الساذجة ودعم طابعه الإنساني .

٤ . الاستفادة من الرموز في الفكر الاسطوري في نقد الانظمة المع رفية الميتافيزيقيا . وهذا ما بدا واضحاً في كتاباتهم، وتحديداً كتاب جدل التنوير لأدورنو و هوركهايمر . نلاحظ استخدامهم رموز كعوليس وجوليت وغيرهم في نقد مقولات التنوير .

٥ . طبيعة الكتابة النيتشوية النثرية، والتي تفتقر الى السياق و النظام تمثل عمق النقد النيتشوي لـ قلية التنوير النسقية السسستمية . والتي يقول عنها هابرماز ان كتابة الشذرة في فلسفة نيتشه ليست صدفة، لانها تمثل الشكل الأدبي لفكر يحاول التملص من هيمنة وقسر النظا .[٧٤] ويمكن اعتبار كتاب جدل التنوير ) لهوركهايمر وادورنو يقع ضمن هذا النوع من الكتابة، وكتاب الأدب الصغير ) لأدورنو ضمن هذا السياق من الكتابة المتحرر من سطوة النسق وهيمنة الفكر النظري المطلق . وهذا الرأي لاينطبق على بعض فلاسفة فرانكفورت كهابرماس وماركيوز التي تمتاز بالنسقية والنظا .

٦ . يرى هابرماز ان فلسفة نيتشه ذات علاقة وثيقة بالواقع، وقد عالجت قضايا مع رفية عملية و ليست نظرية مثالية ماورائية، ان فلسفة نيتشه قائمة على اساس الترابط بين النظرية والممارسة الحياتية بجوانبها المعرفية و الاخلاقية، وان ثمة تلازم بين المعرفة والمصلحة، وبالنتيجة نستطيع القول ان فلسفة نيتشه فلسفة ممارسة، وهذا ما سعى اليه فلاسفة فر كفورت .

٧ . مثلما شك نيتشه في العقل وهدم ركائز الفكر القائم عليه، كذلك فعل فلاسفة فرنكفورت، فقد شككوا في العقل كما عرفه التراث الغربي . فقد ظهر لهم ان كل المجالات التي استعمل فيها العقل لم يبدو سوى وجهه الأداتي، الذي اظهر رغبة في السيطرة على الطبيعة، والإنسا .

٨ . دورنو وهوركهايمر واريك فروم يضعون نيتشه في مكانه تفوق الجميع فيما يخص الطبيعة الغرائزية، وحرصه على اثارة الغرائز المكبوتة . ويرون ان معنى اخلاقيات السادة التي طرحها نيتشه قد تغيرت لم تعد صفة التفوق الان تعني ان يستاثر المرء لنفسه بالافضل

---

٧٤ . ينظر هابرماز : نظ رية المعرفة عند نيتشه، ص ٥ ، ٦ .

• . تجدر الإشارة الى ان الكتاب مترجم الى العربية تحت عنوان الأدب الصغير أفكار ملتقطة من الحياة المشوهة ، ترجمه وقدم له : ناجي العونلي، شرق غرب للنشر، بيروت، ١ ٢٠١١ .

عن الاخرين، بل ان ٍ شعر بالسأم من الاخذ وهو يمارس فعلا فضيلة العطاء التي تبدو عند نيتشه الفضيلة الروحية الوحيدة . كما دعوا الى اعادة قراءة القيم السائدة، التي اسستها الأديان والفلسفات المثالية، مثل المساواة واخلاق الواجب وثقافة التسامح والشفقة والتضحية وغيرها من اخلاق الضعفاء ). اما ابل وهابرماس فقد دعوا الى سيادة اخلاق تواصلية جماعية وهي على النقيض من الأخلاق النيتشوي .

١ . يرى ماركيوز ان مفهوم ارادة القوة قد تجسد في النظام الرأسمالي، وان اخلاق السادة ظهرت بصورة واضحة في المجتمع الرأسمالي .

١٠ . يلتقي هابرماس مع نيتشه في موقفه الناقد للميتافيزيقا، لكنه يختلف معه في نظرياته الاخلاقية على الرغم من ايمان كلاهما بأن الانسان هو الذي يضع القيم والقواعد الاخلاقية، لكن الاخلاق عند نيتشه نسبية، لكنها عند هابرماس تبدأ ذاتية وتنتهي عامة، بمعنى مايتفق عليه البشر يتحول إلى قاعدة اخلاقية عامة .